مراجعة كتاب

الاستشراق بين المعرفة والقوة

محمد عبد السلام الجنائري

في عام1981 م صدرت الترجمة العربية لكتاب «الاستشراق» لأدوارد سعيد، عن مؤسسة الأبحاث العربية، وقد قام بالترجمة الأستاذ كمال أبو ديب، وظهر الكتاب في(366) صفحة. مشتملاً على مقدمة وثلاثة فصول، بالإضافة إلى مقدمة للمترجم، وكشاف لبعض المصطلحات. وقد أشار المؤلف في مقدمة الكتاب إلى أن الدوافع المباشرة لتأليفه عبارة لصحفي فرنسي يصف فيها بيروت أثناء الحرب الأهلية: «لقد بدت ذات يوم، كأنها تنتمي إلى شرق شاتوبريان ونرفال» فيتساءل عما إذا كان الشرقي بصورة عامة - والعربي والفلسطيني بصورة خاصة - يفهم ما تعنيه عبارة «شرق شاتوبريان ونرفال»؟ ولما كان الجواب المنتظر هو النفي، فقد عزم المؤلف على القيام برحلته من عالم الاستشراق، وقدم لنا كتابه هذا، الذي يرى الكثير من النقاد أنه أحدث ثورة في الدراسات الإنسانية.

تنطلق هذه الدراسة الجادة من منطلقات متعددة، إذ تقدم مفهوماً جديداً للقوة التي تنسجها المعرفة، والطابع السياسي للعلاقات الإنسانية بكل أشكالها. وتبدأ بإلقاء الضوء على منابع للقوة كانت خارج الدراسة، وكشفت مدى السيطرة التي تمارسها المعرفة الهادفة إلى استعمار الشعوب.

إن كتاب ادوارد سعيد ليس دراسة عن الاستشراق، باعتباره تاريخاً وأحداثاً، أو دراسة للشرق كما يراه العَرب، ولكنه نفاذ إلى أعماق هذه المنظومة الفكرية بشيء من التحليل. إن كتاب الاستشراق يرتكز على أسئلة عميقة تتعلق بالثقافة والإنسان، ومفاهيم الحقيقة والقوة، ووعي الذات والآخر، كما يعتبر دراسة عميقة للسلطة، التي تفرض سيطرتها على المعرفة. ولا شك أن هذه الدراسة تتميز بجدة ودلالات معنية، ربما لم توفق لها الدراساث السابقة، إذ يحاول أدوارد سعيد أن يتعمق في معرفة الثقافة والسلطة، وعلاقات القوة متأثراً بمنهج ميشيل فوكو، في بعض مواقفه ومنهجه التحليلي، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية كتاب أدوارد سعيد أو أصالته، وترجع هذه الأهمية والأصالة إلى:

1 - القدرة على تمييز الظاهرة الثقافية أو الفكرية.

2 - أعضاء التصورات والمصطلحات صفة شمولية وجذرية، باعتبارها أداة تحليلية لفهم الإنسان والثقافة والمجتمع (ص 3).

إن أدوارد سعيد يقوم بدراسة تحليلية لثقافة الغرب، ولكن ذلك لا يعني أن الكتاب تاريخ للاستشراق وأعلامه، ورصد للشرق كما رآه الغربيون فقط، بل إنه يعتبر كتاباً «عن الغرب وإشكالاته الفكرية» والمفارقات التي تبدو في مسار تطوره

الحضاري، وطريقته في معاينة الآخرين، إذ «تتم هذه المعاينة في إطار القوة والفوقية والسلطة» (ص ٤) ولا تنطلق من زاوية الفكر النقدي الذي يمارسه الغرب في فهم ذاته، بل تنطلق من زاوية الإنشاء الاستشراقي الذي يهدف إلى السيطرة على الآخر.

يكرر أدوارد سعيد أسئلة معينة في دراسته المهمة عن تمثل الثقافات الأخرى، وتحديد ماهيتها وعما إذا كان وجود ثقافة معينة أو حضارة أو دين يعتبر أمراً مفيداً، أم أن ذلك قد يؤدي إلى الانزلاق في بعض الأخطاء كالإعجاب بالذات، أو العدائية للآخرين، ولا شك أن هذه الأسئلة ومثيلاتها تعتبر أسئلة جيدة وجوهرية، إذ توضح لنا كيف تكتسب الثقافة السلطة، وتحدد دور المفكر ودرجة الأهمية التي يجب أن يتسم بها الفكر النقدي تجاه الثقافات والحضارات والأديان.

يرى أدوارد سعيد أن مصطلح «الاستشراق» لم يعد ملائماً لكونه غائماً وعاماً، ومتضمناً للموقف الاستعماري في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن الدراسات لاتزال تكتب، والمؤتمرات تمتد تحت هذا الاسم، فالاستشراق «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب» (ص38) إذ تقبل الكثيرون التفرقة بين الشرق والغرب في حقل واسع، يضم العادات والتقاليد الاجتماعية، والسكان، وغيرها، ولكنه، مع ذلك - يتخذ من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق في دراساته التي تهدف - كأسلوب غربي - للسيطرة على الشرق والسيادة عليه. وقد احتل الاستشراق مركزاً مهماً لا يستطيع معه أي دارس أن يتخلص تماماً من العوائق التي فرضها على الفكر والعمل، وهنا يفرق المؤلف بين الغزو الفرنسي - البريطاني في الشرق، وبين غزو أية دولة أوربية أخرى، لذلك فإن الحديث عن الاستشراق يعتبر حديثاً عن مشروع ثقافي بريطاني وفرنسي، تضم أبعاده مجالات مختلفة، عبر مساحة جغرافية واسعة. وتشمل عدداً كبيراً من الملل والفلسفات، وقدراً ضخماً من التراث، والجيوش الاستعمارية، والإداريين الاستعماريين والخبراء، وتجارة التوابل الخ..... إذ أن الاستشراق ينبثق من «علاقة تقارب خاصة قامت بين بريطانيا وفرنسا والشرق» (ص 39) منذ بداية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث بدأت أمريكا سيطرتها على الشرق.

بدأ أدوارد سعيد دراسته بالافتراض التالي: «إن الشرق ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة» (ص ٤٠) وعندما قال دزرائيلي: «إن الشرق صفة» كان يهدف إلى إثارة الاهتمام بالشرق، إذ أن له ثقافاته وتاريخه وعاداته الخاصة. يحاول هذا الكتاب أن يسهم في معرفة هذه الحقيقة وإذاعتها، وذلك بدراسة الاستشراق من الداخل وتحليل أفكار المستشرقين عن الشرق، معتقداً بأن العلاقة بين الغرب والشرق، تقوم على القوة والسيطرة، ولكن ذلك لا يعني أن بنية الاستشراق قائمة على الأكاذيب والأساطير، إذ أن نظاماً فكرياً يستطيع أن يبقى منذ زمن ارنست رينان في أواخر 1840 م إلى الوقت الحاضر، لا يمكن أن يكون مجرد بناء قائم على مجموعة من الأكاذيب.

يعتمد الاستشراق على تفوق الغرب في علاقاته مع الشرق، الذي برز «شرقاً معقداً متشابكاً» تحت مظلة التسلط الغربي، وبرزت عدة دراسات نظرية في جوانب مختلفة، وقد تميزت بعض الأعمال الاستشراقية بالأصالة في البحث ككتاب «المقتطفات العربية» لسلفستر دي ساسي، أو «مسالك المصريين المعاصرين وعاداتهم» لأدوارد لين، بالإضافة إلى دراسات أخرى، تتسم بالروح العنصرية العرقية كما تمثلت في كتابات رينان.

لقد كانت الأفكار الاستشراقية مشبعة بروح التفوق والعنصرية العرقية، والنزعة الأمبريالية، كما تتسم بأفكار مذهبية جامدة، ولذلك وقعت كثير من الكتابات في منزلق التشويه وعدم الدقة، وقد واجه أدوارد سعيد هذه الكتابات بموضوعية وإنصاف، مميزاً بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية.

من الواضح أن الحديث عن شكسبير، أو وردزورث مثلًا لا يتخذ طابع المعرفة السياسية، ولكن الحديث عن الصين أو الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يتجنب هذا الطابع، لأن الباحث في هذين الموضوعين ومثيلاتهما «يعمل في مجال مشحون» يحظى باهتمام الحكومة وصانعي السياسة، والاقتصاديين، وخبراء الاستخبارات، ولا يستطيع الباحث أن يتجرد من تأثير الواقع الذي يعيش فيه، والمؤسسات التي تعمل في مجتمعه، مهما حاول أن يبلغ مستوى من الحرية، يُعطي لبحثه شيئاً من الموضوعية. ومن هنا فإن الموقف السياسي أو الاستعماري لا بد أن يؤثر على الباحث بشكل ما. ولذلك فإن الباحث الإنكليزي

لا يمكن أن يتحدث عن مصر أو الهند في أواخر القرن التاسع عشر دون أن ينظر إليهما كمستعمرتين بريطانيتين، ومن هنا أيضاً نجد الدراسات الجامعية - التي كان من المفروض أن تكون علمية خالصة - لا يمكن أن تكون بعيدة عن تأثير السياسة، لذلك نجد الأوربي أو الأمريكي يواجه الشرق «بوصفه أوربياً أو أمريكياً أولاً، ثم فرداً ثانياً» (ص 46) وذلك يعني أن الباحث يحس - مهما كان وعيه غائماً - بأنه «ينتمي إلى قوة ذات مصالح محددة في الشرق» (ص ٤٦).

ولكن ذلك لا يعني أن الاستشراق مجرد موضوع أو ميدان سياسي، ولكنه سلسلة من «المصالح» التي يقوم بخلقها والمحافظة عليها، بوسائل متعددة كالوصف الطبيعي، والفقه اللغوي، والتحليل النفسي. والاستشراق - في نظر أدوارد سعيد - «لا يمثل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية والفكرية الحديثة، بل إنه هو هذا البعد» (ص 47) وبالتالي فهو حقيقة ثقافية وسياسية، ولذلك فإن ما يقال عن الشرق أو يكتب عنه يتبع خطوطاً واضحة قابلة للتعرف عليها.

إن معظم المحاولات الهادفة لتمريغ الثقافة في أوحال السياسة، كانت تهدف إلى تحطيم المقدسات، وإن الأمبريالية السياسية تتحكم في مجالات الدراسة وحقول البحث، ولذلك يرى الباحث أن كل كاتب من كتاب القرن التاسع عشر كان يدرك حقيقة الامبراطورية، ولهذا فإنه في دراسته للاستشراق ينظر إليه بوصفه تبادلاً حيوياً بين الكتاب والمؤسسات السياسية التي شكلتها أمبراطوريات بريطانيا، وفرنسا، وأمريكا، وهو يعني هذا بالتفاصيل ولا يكتفي بالحقيقة الاجمالية.

وهنا يطرح عدداً من الأسئلة المهمة: - ما هي أنواع الطاقات الفكرية والجمالية والثقافية التي دخلت في تراث الاستشراق؟ كيف خدم فقه اللغة، والتاريخ، والنظرية السياسية والاقتصادية، وفن الرواية والشعر الغنائي، وجهة النظر الاستشراقية ذات النزعة الأمبريالية؟ وبالتالي كيف يمكن أن نعالج ظاهرة الاستشراق بوصفه نمطاً من العمل الإنساني؟

إن دراسة العلوم الإنسانية تعتمد بقدر كبير على المنهجية لايجاد نقطة الانطلاق في البحث، ولكن أدوارد سعيد يصرح بأنه لم يكن يهدف إلى إنجاز تاريخ موسوعي للاستشراق، لأن مادة هذا البحث بحر لا ساحل له، كما أن النموذج السردي لا يتلاءم مع اهتمامات المؤلف الوصفية والسياسية، وقد ركز اهتمامه على التجربة الإنكليزية - الفرنسية - الأمريكية نحو العرب والإسلام اللذين كانا لمدة ألف عام ممثلين للشرق.

إن أوربا بعد حملة نابليون «أصبحت تعرف الشرق بصورة أكثر علمية» (ص ٥٥) وكان يعنيها المجال المتسع، فاستجاب الاستشراق للثقافة التي أنتجته، ولكنه كان على علاقة مع الثقافة المحيطة به، ولهذا فإن تحليل المؤلف يتجه إلى استجلاء النسق الداخلي للاستشراق، والتعرف على رواده وشيوخه، ونصوصه وأفكاره، وشخصياته وأتباعه، كما يحاول أن يوضح الطريقة التي استعار بها الاستشراق أفكاراً معينة واتجاهات مذهبية، جعلته يتخذ مسالك محددة. وفي سبيل استجلاء ظاهرة الاستشراق لم يكتف المؤلف بدراسة البحوث العلمية فقط، بل اتجه إلى دراسة الأعمال الأدبية، والمقالات السياسية والنصوص الصحفية، بالاضافة إلى الدراسات الدينية واللغوية، وكتب الرحلات، وبالرغم من أن الكتاب يضم نصوصاً عديدة فإنه لا يعتبر تاريخاً كاملاً للاستشراق، ولكنه يمكن أن يكون مقدمة لكتب أخرى قد ينجزها عدد من الباحثين والنقاد، تتناول العلاقة بين الاستشراق والثقافة، أو العلاقة بين الاستشراق والتربية والتعليم، أو التعمق في دراسة المدارس الاستشراقية كالمدرسة الإيطالية أو الألمانية، وغيرها من الجوانب التي تحتاج إلى إضاءات نقدية، كالتساؤل عن الكيفية التي يمكن أن تدرس بها ثقافات الشعوب من منظور تحرري، وزاوية غير متعصبة ولكن ذلك يقتضي بدون شك، دراسة مشكلة المعرفة والقوة والعلاقة بينهما.

إن أدوارد سعيد قدم هذه الدراسة بطريقة جديدة ربما لم تقدم بها من قبل، وقد كان يهدف إلى دراسة قضايا ذات أهمية كبيرة ترتبط بتصور الغرب وتعامله مع الآخرين، والدور المهم الذي تلعبه الثقافة الغربية من العالم، ولا شك أن هذه الدراسة تفيد القارىء في العالم الثالث. في تفهم السياسة الغربية وقوة الإنشاء الثقافي العربي.

يرسم في الفصل الأول مجال الاستشراق، ويتتبع في الفصل الثاني تطور الاستشراق الحديث، ويتحدث في الفصل الثالث عن الاستشراق الآن، بعد مرحلة التوسع الاستعماري، «ويحدد

القسم الأخير من الفصل خصائص النقلة من التسلط البريطاني الفرنسي إلى التسلط الأمريكي» (ص 58).

إن هذه الدراسة تعتبر محاولة لمعرفة تأثير الثقافة الغربية على شخص المؤلف الذي درس في مستعمرتين للغرب (هما فلسطين ومصر). وقد كانت الثقافة الغربية ذات أثر كبير في حياة الشرقيين، وكان من الطبيعي أن يكون الشرق الإسلامي مركز الاهتمام بالنسبة إلى المؤلف، وقد حاول أن يحتفظ بوعيه النقدي، مستخدماً أدوات البحث التاريخي والإنساني والثقافي، إن التجارب الشخصية للمؤلف دفعته لكتابة هذه الدراسة، لأن حياة الفلسطيني في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة تبعث على اليأس، أو أن هناك رأياً عاماً يجمع على أن الفلسطيني غير موجود سياسياً، وإذا اعترف له بهذا الوجود فهو وجود مزعج. إن النزعة العرقية والامبريالية السياسية والعقائدية تعمل على إزالة إنسانية الإنسان، ومن هنا فإن سلسلة المعرفة والقوة التي تحاول أن تلغي الشرقي ككائن إنساني لا يمكن أن تكون قضية بحث جامعي فقط، بل إنها قضية فكرية ذات أهمية كبيرة، وقد عمل المؤلف على تحليل هذه القضية، وأقنعته دراسته لهذه الظاهرة. . ظاهرة الاستشراق بأن «المجتمع والثقافة لا يمكن أن يفهما ويدرسا إلا معاً» (ص 60) ويتمنى لدراسته أن تكون قد ساهمت في فهم «للطريقة التي مارست بها السيطرة الثقافية فاعليتها» (ص 60).

يبدأ المؤلف حديثه عن مجال الاستشراق من خلال محاضرة ألقاها اللورد بلفور (صاحب الوعد الشهير) في 13 حزيران (يونيو) 1910 م، أمام مجلس العموم البريطاني يحدد فيها بأن غرض الاستشراق هو الإعلام عن الشرق وتفسيره، ولذلك فإن «ما تعرفه بريطانيا من مصر، هو مصر» بالنسبة لرجل السياسة الإنكليزي، وهو يؤمن بتفوق انكلترا ودونية مصر، وهو يرى أن المعرفة تمنح القوة. وأنها تعني الدراسة الشاملة لحضارة ما، أما اللورد كرومر الذي كان ملك مصر غير المتوج في الفترة بين 1882-1907 م فهو يرى في الوجود البريطاني فرصة أمام مصر، لتقلل من شرقيتها، مؤمناً بافتقار العقل الشرقي إلى الدقة، ولذلك نجد الأوربي يؤمن بتفوقه وذكائه، بينما يفتقر الشرقي إلى الذكاء والدقة والقدرة على الضبط والنظام، ولهذا اعتبر الشرقي شيئاً يمكن أن يدرس ويؤدب، ويحاكم، وأن الأمم الشرقية غير قادرة على حكم نفسها، ومن هنا يظهر الشرقيون والعرب سذجاً لا يتمتعون بالحيوية والقدرة على المبادرة، بل نجدهم محبين للإطراء، والدهاء والقسوة «وهم كسالى وسيئو الظن» يقفون على النقيض من الشعوب الأنجلو سكسونية.

إن كرومر لا يخفى أن يرى في الشرقيين «المادة الإنسانية التي قام بحكمها في المستعمرات البريطانية» (ص ٧٠) مؤيداً أقواله بآراء وأعمال عن المستشرقين السابقين أمثال أرنست رينان، وكونستانتان دوفولني، وليس لديه شك في سلامة آرائه التي تعتبر الشرقي مذنباً. لقد كان الاستشراق إضفاءً وتبريراً يسوغ الحكم الاستعماري، وقد جاء هذا التسويغ بصورة مسبقة، حتى أصبح التمييز بين الشرق والغرب أمراً مقبولاً لا شك فيه لدى المستشرقين وصانعي السياسة، وقد تبلور منذ منتصف القرن الثامن عشر عنصران رئيسيان في العلاقة بين الشرق والغرب هما:

1 - إن المعرفة الأوربية بالشرق، معرفة دعمتها المواجهة الاستعمارية.

2 - إن أوربا كانت دائماً في موضع القوة والسيطرة.

لقد استخدمت مصطلحات متعددة لتوضيح العلاقة بين الشرق والغرب، فالشرقي - عند بلفور وكرومر وغيرهما - «لا عقلاني، فاسق، طفولي، متخلف، بينما الأوربي عقلاني، فاضل، ناضج» (ص 71). ونظراً لأن معرفة الشرق جاءت وليدة القوة، فإن الشرق يظهر بمظهر خاص معين، إذ يقدم - في لغة بلفور وكرومر - في صورة شيء يحاكمه أو يدرسه ويصوره، أو يؤدبه. . وقد نما لدى الغرب اقتناع بأن كل ما في الشرق يحتاج إلى دراسة تصحيحية من قبل الغرب، حتى أصبح جوهر الاستشراق يتمثل في التمييز الواضح بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية.

اتخذت أفكار المستشرقين ألواناً متعددة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وقد شكلت الصيغة الأساسية للعلاقة بين الشرق الأدنى وأوربا بغزو نابليون لمصر عام 1798 م، إذ أدى هذا الاحتلال إلى تلون النظرة الأوربية للشرق بلون معين، واعتبرت مصر والبلدان الإسلامية الأخرى «المجال الحي، والمختبر، والمسرح للمعرفة الغربية الفعالة بالشرق» (ص 73) وتطورت

دراسات المستشرقين ونمت بصورة كبيرة، وتعددت كراسي الاستاذية في الدراسات الشرقية، وبالتالي توسع مجال النشر أمام حركة الاستشراق، وتضاعف عدد الدوريات المتخصصة، ولكن القليل من هذه النشاطات كان يوجد ويزدهر بحرية، لأن الاستشراق «فرض حدوداً على الفكر المتعلق بالشرق» (ص 74) وخضع أكثر الكتاب لضوابط مقيدة، إذ أن الاستشراق كان أيضاً «رؤية سياسية للواقع».

إن قرار مجمع فيينا في سنة 1312 م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية، واليونانية، والعبرية وغيرها يعتبر نقطة الانطلاق للاستشراق، وتعدد مجالات الدراسة فيه من لغة، وتاريخ، وشريعة وغيرها، بل إن المستشرقين قد شغلوا أنفسهم بما هو شرقي إلى درجة كبيرة من التخصصات الفرعية. لقد كان بعض المستشرقين مهتماً باللغات السامية، أو معتكفاً على دراسة الإسلام أو مختصاً بالصين، ومع منتصف القرن التاسع عشر أصبح المجال متسعاً أمام الفكر الاستشراقي إلى درجة كبيرة مما يمكن أن يوصف بالموسوعية، وقد كان عدد كبير من الكتاب الكبار خلال القرن التاسع عشر متحمسين للشرق مثل هوغو، وغوته، ونرفال، وفلوبير، وفتزجرالد، ولكن الملاحظ أن كتابات هؤلاء وغيرهم كانت تتسم بنظرة أسطورية حول الشرق، أو بما أسماه البعض بغرور الأمم والباحثين.

لقد ظلت كلمة «الاستشراق» صالحة للاستعمال، وإن كان الاتجاه أصبح يتجه نحو إيجاد تسميات جديدة، وقد كلفت الحكومة البريطانية في عام 1959 م لجنة خاصة تكون مهمتها «دراسة التطورات في الجامعات، في ميادين الدراسات الشرقية، والسلافية، والأوربية الشرقية، والإفريقية.. والنظر في الاقتراحات المقدمة لتطويرها في المستقبل، وتقديم توصيات حولها» (ص 83) وقد كان هـ. أ. ر. جب يفضل أن يسمي نفسه «مستشرقاً» بدلاً من «مستعرب» ويستخدم كلمة «دراسات إقليمية» كمرادف لمصطلح «الاستشراق».

لقد كان الشرق منذ القديم في نظر أوربا شيئاً أكبر مما كان معروفاً عنه، ولكن فهمها لواحدة من الثقافات الشرقية وهي الثقافة الإسلامية لم يكن صحيحاً. وأصبح الشرق - في نظر أوربا - معروفاً في الغرب بوصفه نقيض الغرب، وأصبحت النظرة إلى الشرق تتراوح بين الازدراء أو رعدة المتعة أو الخوف، وقد كان الأوربيون ينظرون إلى الإسلام - بصورة خاصة - نظرة ملؤها الشعور بالخوف إذ تنامت سيطرة الإسلام بصورة هائلة حتى توغل الفتح الإسلامي إلى الصين شرقاً، وطرق أبواب أوربا الجنوبية فشعر الأوربيون بالخوف والرهبة، ولم يكن للمؤلفين المسيحيين تصور صحيح للثقافة الإسلامية، إذ كانوا يرون في الإسلام زوبعة عقائدية خطيرة، وكان «الخطر العثماني» حتى نهاية القرن السابع عشر يتربص بأوربا مهدداً بصورة دائمة ولكنها استطاعت أن تمتص هذا الخطر، وأن تحد من خطورته.

لقد كان الغربيون يحملون صورة للإسلام لم يتخلوا عنها أمام الحقائق الواضحة، وقد ازدادت هذه الصورة حدة خلال العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة الأوربية، وكانوا يرون في الإسلام صورة منحرفة ضالة للمسيحية، كما يرون في الشرق حقلاً مغلقاً لا يعتبر امتداداً لأوربا «والمستشرق ليس إلا الفرد المختص بمعرفة تحمل مسئولياتها أوربا كلها» (ص 29) الذي يهدف إلى إصدار للآراء والأحكام التي تدفع العقل الغربي إلى إدانة الشرق. وبذلك يصبح الاستشراق ممارساً لسطوته على الشرق، وأن المعلومات والحقائق ليست هي المطلوبة أو المهمة، ولكن المهم صد الرؤية الاستشراقية التي تنطلق من عقدة الهيمنة والإدانة للشرق.

إن العلاقات الثقافية بين أوربا والشرق مرت بمراحل عديدة، إلا أن خطأً معيناً استمر يفصل بين الشرق وأوربا التي زحفت على الشرق، ومن هنا جاء هذا المصطلح «الاستشراق» وهو فرع المعرفة الذي يهتم بدراسة الشرق «من حيث هو موضوع للتعلم والاكتشاف، والتطبيق...» (ص 101) ولكن هذا المصطلح يشير أيضاً إلى الأحلام والصور التي توجد لدى كل من يحاول أن يتحدث عن الشرق.

إن الشرق يعتبر ميداناً للسيطرة الغربية، ويصدق هذا بصورة خاصة على التجربة البريطانية في الهند، والتجربة البرتغالية في جزر الهند الشرقية، والتجربتين الفرنسية والايطالية في أقاليم مختلفة، ولكن الشرق العربي الإسلامي كان الوحيد الذي واجه أوربا بتحد كبير لم تجد له حلاً، ولذا اتخذ الاستشراق سمة

موقف أوربي حاد تجاه الإسلام، إذ كان يمثل عند أوربا «استفزازاً حقيقياً بطرق مختلفة» (ص 101) حيث كان يشكل موضع قلق كبير لأوربا، إذ هددها منذ نهاية القرن السابع تهديداً فعالاً، ولم يكن يغيب عن فكر الأوربيين إشعاع الإسلام وانتصاره.. وكانت الحروب الصليبية وسقوط القسطنطينية وفتح صقلية وأسبانيا تعيش من ذاكرة أوربا، وفي أعماق ضميرها، ولذلك نجد أن أوربا تعامل الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى بصورة مغايرة لما تعامل به الإسلام والمسلمين.

يشير نابليون إلى الرحالة الفرنسي فولني في تأملاته حول الحملة المصرية، إذ كان يرى أن هناك ثلاثة حواجز تقف في وجه السيطرة الفرنسية، ولذلك فإن على فرنسا أن تخوض ثلاثة حروب: الأولى ضد انكلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة وهي أكثرها صعوبة ضد المسلمين (ص 108) وقد حاول نابليون أن يستميل المسلمين إليه باعتبار أنه من المسلمين الحقيقيين كما جاء في إعلانه يوم 2 يوليو 1789 م إلى أهالي الاسكندرية، مستخدماً فريقاً من المستشرقين، محاولاً استغلال عداء المصريين للماليك، وجاذبية الثورة الفرنسية، ليشن حرباً ضد الإسلام والمسلمين، محاولاً أن يبرهن أنه كان يحارب من أجل الإسلام (ص 108).

لقد كان تعامل نابليون مع المسلمين جزءاً من خطته في السيطرة على الشرق، وقد كانت آسيا تمثل لأوربا البعد والاغتراب، كما يمثل الإسلام العدوانية الهجومية، ومن هنا كان من الواجب أن يُعرف الشرق أولاً، ثم أن يعاد تشكيله على أيدي الباحثين والجنود والقضاة. وقد كانت فكرة فتح قناة السويس الخاتمة المنطقية للفكر والجهد الاستشراقيين (ص 117). لقد حطمت قناة السويس نأي الشرق، وتغير جوهره، ولم يعد من الممكن أن نتحدث عن الشرق باعتباره عالماً آخر، ومنذ ذلك الوقت أصبح «الشرق» مفهوماً إدارياً أو تنفيذياً، بعد أن ذابت الهوية الجغرافية للشرق.

يعتبر الاستشراق الشرق والشرقيين موضوعاً للدراسة، ويرى أنور عبد الملك أن الاستشراق في أزمة، إذ قاده تاريخه إلى طريق مسدود، وقد كان للاستشراق منذ بدايته خصيصتان:

1 - وعي للذات مبني على أهمية الشرق لأوربا.

2 - ميل إلى التقسيم والتفريغ دون تغيير لنظرته نحو الشرق.

وقد اتسمت كثير من الدراسات الاستشراقية بشيء كبير من التعصب العنصري، وكان الاستعمار يعنى بالمحافظة على مصالحه التجارية والدينية والثقافية، فأسس عدداً من الأجهزة لرعاية هذه المصالح التي أصبحت «تُحمى فيما بعد، بحماسة شديدة وبنفقات عالية» (ص 124).

ومن هنا فإن المستشرق لا يدرس الشرق دراسة موضوعية، خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بالإسلام، وكانت الصلة وثيقة بين رجل الدولة الغربي بالمستشرق الغربي، حتى «تطابق مجال الاستشراق بدقة مع مجال الأمبراطورية» (ص 128).

وقد أدى ذلك إلى أزمة في تاريخ التفكير الغربي ونظرته نحو الشرق، واستمرت هذه الأزمة إلى مؤتمر باندونج الذي انعقد عام 1955 م، بعد أن حصلت شعوب الشرق على استقلالها السياسي، وظهرت قوى امبريالية جديدة، تمثلت في الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، ووجد الاستشراق نفسه أمام شرق جديد، وأصبح أمامه ثلاثة بدائل: إما أن يسير في طريقته السابقة دون أي تغيير، أو التأقلم مع الشرق الجديد، أو التخلص من الاستشراق بصورة كاملة، يرى أنور عبد الملك أن أحد مؤشرات الأزمة لا تتمثل في حركات التحرير الوطنية التي عصفت بتصورات المستشرقين عن شعوب خانعة مستعمرة، ولكنها تتمثل في أن الناس أصبحوا على وعي في التمييز بين علم الاستشراق وموضوع الدراسة، بل «بين التصورات والمناهج وأدوات العمل...» (ص 128).

لقد كان المستشرق الحديث يرى في نفسه بطلاً ينقذ الشرق من زوايا الإبهام والغموض، ويعيد بأبحاثه اللغات الشرقية الضائعة وعاداته، كما أعاد شامبليون بناء الهيروغليفية عندما استطاع قراءة حجر رشيد، واستطاع أن يفك الرموز الثقافية للشرق القديم، ولكن هذه المناهج لم تستمر على حالها، وأصبحت الدراسات الاستشراقية تهدف إلى السيطرة على الشرق بمحاولة تكوين عوالم جديدة، وكانت طموحات المناهج تتعدى عمر الفرد، ولذلك تكون تراث استشراقي يتميز بالاستمرارية، وفق نسق معين من أفكار متوارثة، أسهم في بنائه

الكثيرون، وأعطت حملة نابليون دفعة منشطة لحركة الاستشراق ـ وكان ساسي ورينان ولين بناة مجال الدراسات الإسلامية، وقد منحوا حركة الاستشراق أسساً معينة حتى أصبحت كتاباتهم تحمل مفردات وأفكاراً يستطيع أن يستعملها كل باحث يريد أن يصبح مستشرقاً، واكتسب الاستشراق نفوذاً كبيراً حتى أصبح، مع نهاية الحرب العالمية الأولى ـ جزءاً من جوانب الامبريالية والاستعمار (ص 145).

لقد كان سلفستر دي ساسي أول رئيس للجمعية الآسيوية التي تأسست عام 1882 وقد قدم للاستشراق عملاً كبيراً من البحوث ربط فيها بين الدراسة والسياسة العامة. وقد تصرف كرجل كنيسة متعلم، وقد وصفه أحد المعجبين به بأنه «قد وفق بين طريقة العالم وطريقة المعلم للكتاب المقدس» (ص 147) ويعتبر ساسي هو المؤسس، وجاء بعده أرنست رينان في الجبل التالي، وعمل على منح صفة التماسك والصلابة للدراسات الاستشراقية، وكان «شخصية ينبغي أن تفهم بوصفها نمطاً عن التطبيق الثقافي الفكري، (ص 151) وكانت له أفكاره السيئة من الدين والقومية والعرقية، وكلما رغب أن يتحدث عن المسلمين مثلاً كان يفعل ذلك منطلقاً من أحكامه القاسية على الساميين، إذ كان يرى في السامية شكلاً منحطاً بالمعنيين الأخلاقي والبيولوجي (ص 160) حتى أصبحت اللغة والتاريخ والثقافة وغيرها أشياء منحرفة لأنها سامية وشرقية، وأن الساميين وحدانيون يتعجلون، لم ينتجوا تراثاً أسطورياً، أو فناً، أو تجارة، أو حضارة... (ص 161) ويحاول أن يبرهن على أن «السامية ليست لغة حية، وأن الساميين في نهاية المطاف، ليسوا مخلوقات حية» (ص 163) وقد نحت الدراسات الاستشراقية منحى غير موضوعي يقطر حقداً وضغينة خاصة عندما يكون الحديث عن الإسلام، والقرآن، ومحمد صلى الله عليه وسلم، كما جاء في موقف موير حين قال: «إن سيف محمد، والقرآن، هما أكثر أعداء الحضارة، والحرية...» (ص 168) ولا يمكن أن نفسر هذا الحقد واللاموضوعية في دراسات المستشرقين عن الإسلام إلا بما ذكره محمد أسد في كتابه «الطريق إلى الإسلام» (ص 20): «ولكي نجد تفسيراً مقنعاً بحق لهذا التعصب، علينا أن نعود إلى تاريخ الماضي البعيد.... إن ما يفكر به الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات إنما ولدت في إبان الحروب الصليبية». واستخدم الشرق موضوعاً للنظريات المتعددة، إذ استخدم الكاردينال نيومن، الإسلام الشرقي أساساً لمحاضراته التي ألقاها عام 1853 م لتبرير التدخل البريطاني في حرب القرم (ص 170) كما أصبح الشرق مادة جيدة لأحاديث (الصالونات) في باريس، ولكن الأمر لا يخلو من بعض الاستثناءات التي تتسم بشيء من الموضوعية، كأعمال كارلايل مثلاً.

لقد أصبح الشرق مكاناً مفضلاً عند الأوربيين للترحال فيه والكتابة عنه، وبالتالي ظهرت أعمال أدبية كثيرة ذات أسلوب شرقي. تقوم على التجربة الشخصية، ويأتي في مقدمة الرحالة الذين كتبوا عن الشرق فلوبير الذي يعتبر مصدراً بارزاً لهذا النوع من الأدب. وهنا نتساءل: لماذا يسافر الأوربي إلى الشرق؟ لماذا يعرض نفسه للمتاعب؟ هل هي الرغبة في التجربة الحسية؟ أم لاكتشاف عالم جديد لا يعرف عنه شيئاً أم لتزويد الاستشراق بمادة علمية؟ أم لهدف آخر؟

يعتبر كتاب أدوارد لين من «مسالك المصريين وعاداتهم» نموذجاً لمن يريد تقديم مادة علمية، وكتاب بيرتن «الحج إلى المدينة ومكة» نموذجاً للرغبة في السياحة والاطلاع، بينما يعتبر كتاب نرفال «رحلة إلى الشرق» نموذجاً للصنف الثالث الذي يجعل من الرحلة أبي الشرق «تحقيقاً لمشروع ملحّ ونابع من انفعال عميق» (ص 174).

لقد اكتسب لين سمعة كبيرة بسبب التأثير الواسع الذي أحدثه كتابه عن المصريين، بفضل الطريقة التي اتبعها في بحثه، وقد أصبح كتابه هذا مصدراً للتعريف بالعالم العربي، وكان حصيلة لفترتين من الإقامة في مصر، الأولى كانت ما بين 1825-1828 م والثانية كانت بين 1833-1835 م، وقد كان كتابه وصفاً مباشراً لم يقف عند مجرد ملاحظات أولية بل تحول إلى «وثيقة للمعرفة المفيدة»... وقد تلقت الجمعية الملكية الآسيوية كتاب لين بكل اهتمام، إذ حقق جزءاً من أهدافها التي كانت تتمثل في «استقبال المعلومات المتعلقة بالفنون والعلوم، والآداب، والتاريخ والآثار في الشرق» (ص 180) وتشجيع تأليف وطباعة الكتب والحصول على المخطوطات أو نسخها أو ترجمتها أو نقل مختارات منها... مما يمكن المستشرقين والمختصين من

الحصول على «المادة الشرقية» المطلوبة، وقد قدم لين كتابه هذا ضمن النظام الاستشراقي الذي يسعى إلى تكوين متحف معين كما يقول دي ساسي «يشكل مستودعاً لأشياء من أنواع شتى، من الرسوم والكتب الأصلية والخرائط، ومسارد الرحلات، تقدم جميعها لأولئك الذين يرغبون في نذر أنفسهم لدراسة الشرق. . . .» (ص 181).

لقد كان الغربيون يعيشون خلال قرون عديدة، في إطار تقسيم تخيلي وجغرافي، نتيجة صدامهم مع الشرق وشعورهم بالقوة والهيمنة. وقد كان لذلك أثره الكبير على الدراسات الاستشراقية، ولا شك أن ميادين المعرفة والتعلم تخضع لعوامل معينة ذات فاعلية تنبع من المجتمع والتقاليد والمؤسسات الثقافية كالمدارس والمكتبات، ولذلك فإن إنجاز أي عمل ثقافي يخضع إلى حد كبير لظروف المجتمع وعوامل التأثير فيه، ولا يعود فقط لعبقرية الباحث وحده، ولذلك فإن مجالاً واسعاً كالاستشراق لا يمكن أن تتم الدراسات والبحوث فيه بجهود فرد واحد أو أفراد قليلين، بل إنه يتم بطريقة تراكمية يساهم في بنائها باحثون عديدون، ومن هنا يمكن اعتباره منهجاً من الرؤيا، والدراسة والكتابة المنظمة المفننة. . .» (ص 214).

وقد يبدو هذا التحديد سياسياً أكثر من أي شيء آخر، ولا ينفي أدوارد سعيد ذلك، بل يرجعه إلى أن الاستشراق نفسه الذي كان «نتاجاً لقوى ونشاطات سياسية معينة» (ص 214) وليس مجرد مذهب إيجابي حول الشرق، ولكنه نوع من الدراسة والبحث يلتقي تحت مظلته الباحثون الجامعيون، والرحالة، والحكومات، والحملات العسكرية، وأصحاب المشروعات التجارية، والحجاج الذين يرون في الشرق نمطاً خاصاً من المعرفة تتعلق بأماكن وشعوب وحضارات معينة. بالإضافة إلى قراء الروايات ومحبي المغامرات الغريبة، والمؤرخين الطبيعيين، ويمكن أن نقول، بعبارة أخرى إن الاستشراق نظام من المعرفة يخضع لصفات معينة، ومناهج محددة، ساهم في تعميق الشعور بالهيمنة والتمايز لدى الأوربيين تجاه الشعوب الأخرى، ومن هنا أصبح الاستشراق مذهباً سياسياً تم تطبيقه إرادياً على الشرق، لأنه كان هو الأضعف «وأن مجرد وجود «حقل» كالاستشراق، دون أن يوجد معادل مطابق له في الشرق نفسه، ليوحي بالقوة النسبية للغرب» (ص 215) ويكفي أن نشير إلى أن حوالى (60000) كتاب تتعلق بالشرق قد كتبت بين1800 م و1950 م من الغرب، بينما لم تكن هناك سوى كتابات قليلة من الشرق عن الغرب، ومن هنا بدأ لعدد كبير من المستشرقين أن الشرق وجد من أجل الغرب، وقد شجع العدد الكبير من المؤسسات والوكالات والأجهزة المستشرقين لإتمام مشاريعهم الثقافية، دون أن تكون هناك مؤسسات موازية في المجتمع الشرقي. لقد انتقل مركز القوة بعد القرن السادس عشر إلى الغرب، ولكن الاستشراق في القرن العشرين أصبح في أزمة، حيث حدثت نقلة رئيسية في مجال الاستشراق، الذي أصبح أداة بعد أن كان منهجاً للدراسة، وبالتالي تغير الموقف، وأصبح المستشرق نفسه ممثلاً للثقافة الغربية، يحمل في نفسه ازدواجية رئيسية، ويرى في نفسه عاملاً من أجل تحقيق الوحدة بين الشرق والغرب، عن طريق تأكيد هيمنة الغرب وتفوقه، ويسعى بكل قواه لتغيير ملامح الحياة الشرقية، وأصبح خبيراً يقدم خبرته، بعد أن كان باحثاً يلاحظ ويدرس ويكتب فقط. وليس من الصعب أن نلاحظ الصلة الرابطة بين الاستشراق والسياسة، لأن التدخل الغربي في الشرق لا يمكن أن ينكر، وإذا كانت الثقافة الأوربية قد هضمت الشرق وتمثلته من خلال دراسات المستشرقين، فلا شك أن المستشرق كان وسيطاً في توصيل الثقافات الشرقية، مما جعل فاليري يدعو إلى الاعتراف بأن الشرق كان أصلاً للعلوم الأوربية، ولكن للسياسي رأي آخر، لبلفور مثلاً الذي يرى أن «مجرد رغبات 700,000 عربي لا أهمية لها بالمقارنة مع مصير حركة استعمارية أوربية في جوهرها» (ص 256). إن أوربا تحاول جاهدة أن تحافظ على نفسها - كما قال فاليري - كآلة قوية، تمتص ثروات الآخرين لاستعمالها الخاص، إذ لا ترى في الشعوب الأخرى سوى نوع من الكائنات لا يرقى إلى مستوى البشر، ينبعون من الأرض، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات، ثم يغوصون عائدين إلى أكوام المقابر التي لا أسماء لها، دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا. حتى القبور نفسها سرعان ما تنحل رجوعاً إلى التراب كما قال جورج أورويل (ص 257).

لقد ردد المستشرقون أفكاراً متوارثة عن تفوق الغرب، وضعف الشرق، وعاشت هذه الأفكار في أعماق الضمير

الأوربي، ولونت الثقافة الأوربية بلون خاص جعل من الاستشراق أداة للسياسة، تحمل «معالم الخوف الأوربي العظيم من الإسلام» (ص 258).

لقد كان المستشرق ـ قبل الحرب العالمية الثانية ـ يعتبر باحثاً عاماً غير متخصص، يستطيع أن يقدم تقارير وخلاصات حول موضوعات شتى، محاولاً من خلال دراسته لبعض الموضوعات الصغيرة. أن يصل إلى فهم أفضل للشخصية الشرقية أو العقل الشرقي، ولكن دراسة المستشرقين لم تتم لأغراض معرفية فقط، ولكنها كانت تهدف إلى أغراض عملية أيضاً، وكلما زاد عدد الدول الإسلامية التي تقع تحت السيطرة الأوربية، ازداد اهتمام الأوربيين بالشرق والإسلام، وأصبحوا حريصين على أن يصبحوا «أكثر ألفة ومعرفة بالحياة الفكرية، والفقه الديني، والخلفية التصورية للإسلام. . . .» (ص 260).

لم يعد خضوع الشرق لسيطرة أوربا بعد الحرب العالمية الثانية ـ مقبولاً باعتباره حقيقة لا تقبل الجدل، كما أنه لم يعد يفترض أن الشرق كان بحاجة إلى التنوير الغربي» (ص 261) وقد كانت الدراسات الاستشراقية في فترة ما بين الحربين ـ تحديداً ثقافياً للذات بما وراء حدود الإقليمية، إذ كان الغرب ـ في رأي جب ـ بحاجة إلى الشرق كموضوع تجب دراسته، وكانت أفضل الأعمال الاستشراقية في تلك الفترة تتمثل في نتاج ماسينيون وجب، إذ اتخذت دراساتها أسلوباً مغايراً لما كانت تسير عليه الدراسات السابقة، إذ أصبح من أهداف الدراسة الانطلاق من الخاص إلى العام، من أجل فهم الحياة والثقافة.

ومن الملاحظ أن هناك فرقاً واضحاً بين دراسات المستشرقين في مجال الإسلام، ومجالات فروع المعرفة الإنسانية الأخرى، أو نجد المستشرقين يشعرون باغتراب عن الإسلام مما زاد «شعورهم بتفوق الثقافة الغربية وسموها» حتى اتسع مجال كرههم ليشمل الشرق كله، وقد ظل هذا الاتجاه سائداً في تقاليد الدراسات الاستشراقية خلال القرن التاسع عشر، وأصبح تقليداً أساسياً في بناء الفكر الاستشراقي. ولا ينفي الباحث هنا أنه قد وجد شيئاً من الإدراك لتخلف الدراسات الاستشراقية حول الإسلام في نهايات القرن التاسع عشر، لأن هذا النوع من الدراسات بالإضافة إلى الاستشراق الساسي، لم يتحررا، بصورة ضئيلة جداً، من إسار التعصب الديني الذي يعيش في أعماق الضمير الأوربي.

بعد الحرب العالمية الثانية تقلص النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق، وأصبحت شخصية المسلم العربي موضع اهتمام لدى الأمريكيين. إذ أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة الجديدة التي تحاول أن تملأ الفراغ، مدفوعة بالحرص على مصالحها، وأصبح الاهتمام بالدراسات الاستشراقية يتجه إلى أمريكا لتتخذ منها قاعدة لها بتخصصاتها الفرعية بعد أن كانت تقوم على قاعدة أوربية، وتغيرت معالم المعرفة الضخمة المتمثلة في حوليات الاستشراق الأوربي ودراساته، وأعيد أصدارها في أشكال جديدة.

من الملاحظ أن العربي ـ وإن أصبح شخصية تجذب الانتباه، إلا أنه مازال ينظر إليه كقيمة سلبية، وكمخرب لوجود إسرائيل والغرب، أو على الأقل كعقبة تقف دون إقامة إسرائيل، وأنه إنسان ليس له تاريخ، أو تاريخه جزء من التاريخ الذي منح له. لقد كتب لامارتين والصهاينة الأوائل عن فلسطين باعتبارها صحراء خالية تنتظر الازدهار على يد الأقلية التي لم يكن لها وزن أو حق في الأرض، وأصبح العرب «غولاً» يطارد اليهود، وصدرت الدراسات الاستشراقية التي ترى في اليهودي «بطلاً» يمكن أن ينتج ويعمل، وفي العرب إنساناً كسولاً، أو مخرباً لا يصلح للبناء.

يوصف العرب ـ في أشرطة الخيالة والاذاعات المرئية والصحف، بالعنف أو الغدر والخديعة، والتعطش للدماء. . . كما تصوره إنساناً منحلاً يتسم بالسادية والخيانة والانحطاط وغيرها من الصفات السلبية، لأنهم يخشون يقظته، ويخافون من صحوة المسلمين العرب لأنهم بذلك سيحتلون العالم من جديد.

إن الكتب والمقالات التي تصدر في الغرب عن الإسلام والعرب، لم تتغير كثيراً عن الأسلوب الذي كانت تصدر به في القرون الوسطى وعصر النهضة، ومثال ذلك مقالة قريبة العهد كتبتها (ايميت تيرل) في مجلة (هاربر) وصلت إلى أعلى درجة من القذف والتجريح، إذ وصفت العرب بأنهم «قتلة، وأن العنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية» (ص 287)

وتكشف دراسة صدرت بعنوان «العرب في الكتب الدراسية الأمريكية» معلومات خاطئة إلى أبعد حد، إذ يؤكد أحد هذه الكتب «أن القلة من أهل هذه المنطقة (العربية) يعرفون أن ثمة طريقة أفضل للحياة». . ويرى كتاب آخر أن الدين الإسلامي بدأه رجل أعمال ثري من الجزيرة العربية، ادعى أنه نبي، ووجد له أتباعاً بين العرب «وأخبرهم بأنهم اختيروا لكي يحكموا العالم» (ص 288) إلى غير ذلك من المعلومات الخاطئة التي لا تستند إلى أي أساس علمي، والغريب أن تلقى هذه الأفكار ومثيلاتها الدعم من المؤسسات الجامعية المتخصصة في الدراسات الشرقية، بل إن الوقوع في الخطأ على الكتب المدرسية، اتسمت به الكتابات الجامعية المتخصصة مثل كتاب «تاريخ كمبردج» أو كتاب «العالم العربي اليوم» لمورد بيرغر، الذي يرى أن العرب عاجزون عن التفكير الحقيقي، أو سنية حمادي التي تقرر «هكذا يحيا العربي في بيئة قاسية ومحبطة. ولا تتاح له فرصة لأن ينمي طاقاته الكامنة، وأن يحدد موقعه في المجتمع، ولا يؤمن بالتقدم أو بالتغير، ولا يجد خلاصه إلا في العالم الآخر» (ص 308).

إن الصورة التي تكونها الدراسات الاستشراقية في مجملها صورة سلبية، وهنا نتساءل: لماذا إذاً يهتم المستشرقون بالشرق هذا الاهتمام، ويحرصون على دراسته هذا الحرص؟

يتحدث الباحث هنا عن الواقع الفكري السيء في الوطن العربي، إذ لا وجود للمكتبة المتخصصة، بالإضافة إلى ندرة الأبحاث المتقدمة، وغياب وسائل البحث العلمي، وتكدس الطلبة في الجامعات العربية بأعداد رهيبة، وعدم وجود الأساتذة الأكفاء بالصورة المطلوبة. لقد سيطرت بريطانيا وفرنسا على الآفاق الفكرية في الشرق في فترة زمنية معينة، ثم احتلت الولايات المتحدة الأمريكية مكانتهما فيما بعد وأدى ذلك إلى توجه الطلاب المتفوقين إليها، بتشجيع منها لمواصلة دراساتهم العليا. وتلك قضية يجب أن تهتم بها دول الشرق، لأن دراسة الطلبة في الولايات المتحدة الأمريكية سيؤدي بهم أو بمعظمهم إلى التأثر بالثقافة الأمريكية وطريقة الحياة هناك. إن الاتجاه المحسوس للثقافة المعاصرة في الشرق، يشير إلى أن الثقافتين الأوربية والأمريكية استطاعتا أن تؤثرا بشكل واضح كبير في اتجاه الثقافة، وعندما قال طه حسين في عام1936 م عن الثقافة العربية أنها أوربية لا شرقية، فقد كان يصف هوية النخبة الثقافية المصرية، ويمكن أن نصف النخبة الثقافية العربية - بالرغم من التيار المعادي للأمبريالية - بأنها تقع تحت سيطرة الثقافة الأوربية الأمريكية ولكن بدرجة أقل، ولازال العالم العربي والإسلامي يقف في الدرجة الثانية «على صعيد إنتاج الثقافة، والمعرفة، والبحث» (ص 320) إذ لا توجد فيه المجلات المتخصصة، والمؤسسات العلمية الجادة، ومن هنا نجد الطلاب الشرقيين يتجهون إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويجلسون عند أقدام المستشرقين الأمريكيين، لتلقي التوجيه والتأثير، ليعودوا إلى أوطانهم، ينشرون أفكار المستشرقين ومناهجهم، وبذلك تتم المحافظة على الهيمنة الثقافية، وقد آن للشرق أن ينتبه لهذا الخطر، وأن لا يقصر اهتمامه في دائرة النفط والنزعة الاستهلاكية. التي تجعل المواطن العربي مرتبطاً بالسوق الغربي، ومهتماً بتكريس الأشياء، دون الاهتمام بقضايا الفكر والثقافة.

ولكن ما هو البديل للدراسات الاستشراقية؟

إن السبيل يتمثل في تجريد الدراسات الاستشراقية أو الإقليمية من الروح الاستعمارية التي تسري فيها، وإعداد دراسات جديدة، يقوم بها مجموعة من الباحثين المتخصصين من أبناء الشرق على أن يوفر لهم المناخ الثقافي المطلوب من جامعات متخصصة، ومكتبات جيدة، ومكافآت مالية مشجعة.

إن كتاب «الاستشراق» لأدوارد سعيد يعتبر دراسة علمية جادة نفذت إلى أعماق حركة الاستشراق، وألقت أضواء جديدة على مجال الاستشراق وتطوره واتجاهاته، بشمولية وموضوعية، ولكن بعض النقاد يأخذ عليه نزعته التعميمية حين رأى أن هدف الاستشراق هدف سياسي على الإطلاق، مشيرين إلى أن هناك العديد من الدراسات الجادة العميقة، ولكنها ليست ذات هدف سياسي، ولكن هذه الملاحظة لا تقلل من قيمة هذا الكتاب الجيد، الذي نرجو أن يكون بداية لسلسلة من الدراسات الجادة المعمقة لتاريخنا وتراثنا، وتعميقاً لجذورنا، انطلاقاً نحو نهضة ثقافية شاملة.